الفصل الثاني

الاستفهام في المناظرة

المبحث الأول:

مركزية السؤال في المناظرة وحجاجيته

ليس غريبا أن يحظى السؤال باشتغال مركزي داخل المناظرة، ويبسط شبكته على كل أطوارها فـ: "دون سؤال، نكون خارج النقاش"[1] وإذا كانت المناظرة تنبني على اختلاف بين الذوات في مقاربة قضية معينة، فإن السجال الذي يشكل قيمتها المهيمنة مبناه على السؤال. هذا الأخير يعد الوسيلة الأكثر استخداما في أية مواجهة اقتناعية تجري بين طرفين، وأداة المطارحة الكفيلة بمساءلة اعتقادات الآخر واستجواب قناعاته.

إن السؤال هو دائما تجل لمشكل مطروح تجب معالجته. ومن ثم فهو يقتضي تفاعلا بين الذوات المعنية به، أي انخراطها التخاطبي في التفاوض حوله. يكون السؤال بذلك إطلاقا للمفاوضة[2]. وهو بهذه الصفة يصبح محركا للسجال والاستدلال، أي منتجا للعديد من الأقوال التي تقدم نفسها "حسما" للسؤال أو على الأقل الجواب المناسب عنه. لذلك يقول ميشال ماير: "إذا لم يكن هناك سؤال لن يكون هناك سجال. لأنه لن يكون هناك إلا جواب واحد"[3].

وإذا كانت المناظرة مطارحة معرفية، فإن بناء قضاياها يتوقف على الإنتاج المستمر للأفكار/ الأجوبة التي يدلي بها المتحاوران. هذه الأجوبة تنتج عن البحث الذي ينتج بدوره عن السؤال. لذلك "فليس هناك إلا السؤال لتغذية البحث"[4].

إن التوليد الفكري محايث دائما لمسار المساءلة، فبالسؤال تستدعى الأجوبة وتبنى البدائل التي تطور المعرفة. الأمر الذي يعني حسب مانويل ماريا كاريلهو M.M. Carrilho، أن "العقل حركة للسؤال لا تنضب"[5].

---

(1) Michel Meyer: "Pour une anthropologie rhétorique", op. cit, p. 128.

(2) Michel Meyer: "Introduction à Aristote, Rhétorique", op. cit, p. 43.

(3) Ibid, p. 7.

(4) Michel Meyer: De la problématologie, op. cit, p. 234.

(5) Manuel Maria Carrilho: Conséquences de la problématologie, op. cit, p. 78.

يتضح إذن أن الخصائص المعرفية والاستدلالية للسؤال تجعله في قلب أية عملية حجاجية.

وبرصد أغلب نصوص المناظرات في التراث العربي الإسلامي، يتضح أن السؤال يتمظهر فيها عبر الاستفهامات العديدة التي تشغل كل أطوارها، طور "الافتتاح" وأساسا طوري "المواجهة" و"المدافعة"[1].

إن الاستفهام حسب دلالته الحقيقية أي في ارتباطه بـ"مقتضى الظاهر" وفق تعبير البلاغيين العرب القدامى، هو طلب المتكلم معرفة أمر مجهول لديه، ولذلك يقول ابن وهب: "ومن الاستفهام ما يكون سؤالا عما لا تعلمه لتعلمه"[2]، إلا أن الاستفهامات المستعملة في المناظرة لا ترتبط بهذه الغايات، بل يحملها المتحاوران أهدافا إقناعية. فحسب بيير أوليرون Pierre Oléron، فإن المبادلات الكلامية التي تجمع أشخاصا متناقضين "نادرا ما تكون الأسئلة فيها محايدة ومحض إخبارية"[3]. لأن التقاطب هو الذي يوجه أقوال هؤلاء الأشخاص، لذلك انتهى سورل Searle إلى أن الاستفهام في هذه المقامات الحوارية ليس "سؤالا مخلصا"[4] فهذا الأخير يتحقق فقط حين يكون السائل جاهلا بالجواب.

(1) هذه الاصطلاحات وظفها الدكتور طه عبد الرحمان في كتابه: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، مذكور.

(2) إسحاق بن وهب: البرهان في وجوه البيان، مذكور، ص 94.

(3) Pierre Oléron: "Organisation et Articulation des échanges de paroles", op. cit, p. 68.

(4) Ibid.

المبحث الثاني:

أبعاد السؤال في طور افتتاح المناظرة

ليس من المجازفة الجزم بأن مناظرات التراث العربي الإسلامي تستهل بالسؤال، لذلك حق اعتباره الأساس المدشن للمناظرة والمنشط الحاسم لمجراها. ويمكن التدليل على ذلك بمقدمات المناظرات التالية:

فالمناظرة بين عبد الله بن عباس والخوارج تبدأ بهذا السؤال "ما الذي نقمتم على أمير المؤمنين؟"[1]، والمناظرة بين واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد تستهل بسؤال واصل لعمرو "لم قلت إن من أتى كبيرة من أهل الصلاة استحق اسم النفاق؟"[2]، ومناظرة أبي سعيد ومتى بن يونس تستفتح بتوجه السيرافي إلى مناظره سائلا: "حدثني عن المنطق ما تعني به؟"[3]. ولا تشذ سائر المناظرات التي تضمنها كتاب السكوني، عن مستلزمات هذا الطقس الافتتاحي، فانطلاق المناظرة يقوم على السؤال. وهكذا ففي المناظرة الحادية والمائة "قال الشيخ أبو الحسن الأشعري رضي الله عنه: أتى رجل إلى الجبائي، وأنا عنده فقال له: لم منعت أن يسمى الباري عاقلا؟"[4]. وفي المناظرة الثانية ومائة "ذكر بعض العلماء أن الشيخ أبا الحسن الأشعري ناظر الجبائي بمحضر الخليفة في مسألة الرؤية، فقال أبو الحسن للجبائي: ما دليلك على امتناع الرؤية؟"[5].

أ - بعد التقرير:

إن الوقوف عند هذه الأسئلة التي افتتحت بها المناظرات، يقود إلى الاستنتاج بأنها ليست أسئلة استعلام، فهي لا تستخبر، لأن المحاور يعرف مسبقا جواب

(1) المبرد: الكامل في اللغة والأدب، مذكور، ص 91.
(2) الشريف المرتضى: أمالي المرتضى، مذكور، ص 165.
(3) أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، مذكور، ص 109.
(4) السكوني: عيون المناظرات، مذكور، ص 228.
(5) نفسه، ص 229.

مناظره. ومن ثم، فهي أسئلة تقريرية، والتقرير حسب ابن وهب: "يكون سؤالا عما تعلمه ليقر لك به"[1]. ويهدف المناظر من خلال هذا التقرير الإشهاد على ما يتبنى خصمه، لا سيما وأن المناظرة تتم في مجلس وبحضور جمهور. كما يهدف المناظر بسؤال التقرير تأكيد اعتقاد خصمه بوضوح حتى يحصره فيه، درءا لأي تلبيس أو تنصل بعديين من هذا الاعتقاد. وبهذا التقرير يتأتى للمحاور أن يناظر على أرضية واضحة منذ البداية.

ب - بعد التحضير والإعداد:

إذا كان ميشال ماير قد انتهى إلى أن السؤال قد يشكل في المحاورات، وسيلة لـ"إعداد الآخرين وتهييئهم"[2]، فإن استفهامات الافتتاح في المناظرة لا تبعد كثيرا عن هذا المقصد. إذ يتبدى سعيها إلى تحضير الخصم واستدراجه للنزال، إنها "دعوة إلى المناظرة"[3]. لا سيما وأن المناظرات لم تكن ملاعبات ترفيهية، بل مسؤولية يضطر إليها الوازع المذهبي أو الديني أو السياسي أو العلمي... فيكون السؤال وسيلة لإقحام الخصم في المواجهة.

ج - بعد إثارة الخلاف:

ينطوي الاستفهام في افتتاح المناظرة أيضا على مقصدية إثارة الخلاف، ورسم المسافة منذ البداية بين المتناظرين. لأن السؤال حسب ماير مؤشر على ما يحتمل التناقض وما يتضمن مشكلا Le Problématique[4]. وغير خاف أن عملية الإقناع لا تبدأ إلا حينما تبرز الأسئلة. ولذلك فالقضايا محط السؤال في هذه المناظرات هي قضايا خلافية، تتبلور بخصوصها مواقف متعارضة بين المتناظرين ومن أمثلة ذلك: حكم الدين في الموقف السياسي لعلي بن أبي طالب، وحكم مرتكب الكبيرة، والمفاضلة بين المنطق والنحو. هكذا إذن فـ"قبل كل سجال، وقبل كل حوار تبرز الحاجة مجددا

(1) إسحاق بن وهب: البرهان في وجوه البيان، مذكور، ص 94.

(2) Michel Meyer: "les fondements de l'argumentation", op. cit, p. 51.

(3) حسين الصديق: المناظرة في الأدب العربي الإسلامي، مذكور، ص 254.

(4) Michel Meyer: "les fondements de l'argumentation", op. cit, p. 52.

للسؤال"[1] على حد تعبير كورين هووكريت.Corinne Hoogaert

د – بعد الفرجة:

وقد يتخذ السؤال في بداية المناظرة طابعا فرجويا Spectaculaire، يعلن بداية العرض ويكون القصد منه شحن أجواء النقاش وتهييج "البراز في المعركة"[2]، في مجالس كانت كلها أسماعا مصيخة، وعيونا محدقة وعقولا حادة، وألبابا ناقدة[3]. ويظهر ذلك جليا حينما يبادر بالسؤال أحد الحاضرين للمناظرة، وليس المشاركين فيها، كما جرى في مناظرة أبي سعيد السيرافي مع متى بن يونس، حيث انطلق السؤال على لسان الوزير ابن الفرات صاحب المجلس وراعيه. أو كما جرى في مناظرة أبي بكر الباقلاني، والأحدب المعتزلي، حينما بادر عضد الدولة الملك إلى القول "هاتوا مسألة [...] فقال الأحدب لتلاميذه (وهم حضور مع حاشية السلطان): سلوه هل لله تعالى أن يكلف عباده ما لا يطيقونه"[4]. وعليه فإن السؤال في بداية المناظرة قد يكون له هذا الدور الاستعراضي الفرجوي، لا سيما وأن الباحثين في الحجاج لا يستثنون بعد المسرحة Théâtralisation، بوصفها وسيلة إقناعية في الحوار[5]. بذلك يمكن الإقرار مع حسين الصديق بأن من مرامي الاستفهام في افتتاح المناظرات "شد انتباه الحاضرين وإعلامهم بأن المناظرة قد بدأت. فالسؤال بشكل آخر يبحث عن التواصل مع الآخرين، ويطلب منهم توجيه اهتمامهم إلى ما سيجري"[6].

---

(1) Corinne Hoogaert: "Persuasion, communication et questionnement", Dans: Argumentation et questionnement..., op. cit, p. 47.

(2) أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، مذكور، ص 109.

(3) نفسه.

(4) السكوني: عيون المناظرات، مذكور، الصفحات: 236-237-238-239.

(5) Georges Vignaux: l'argumentation, essai d'une logique discursive, Genève, Librairie Droz 1976.

(6) حسين الصديق: المناظرة في الأدب العربي الإسلامي، مذكور، ص 252.

المبحث الثالث:

السؤال في طور المواجهة والمدافعة

1- طبيعة السؤال

إن تتبعا واسعا للاستفهامات التي تعتمدها المناظرة يقود إلى الإقرار بأنها في طبيعتها الغالبة، استفهامات "محصورة" وليست "مفوضة". ومعلوم أن السؤال المحصور هو"ما حصرت فيه على المجيب أن يجيب إلا ببعض السؤال كقولك: أ لحما أكلت أم خبزا؟ فقد حصرت عليه أن يجيبك إلا بأحدهما، أما المفوض فهو كقولك ما أكلت؟ فله أن يقول ما شاء من المأكولات لأنك قد فوضت الجواب إليه"[1]. ويمكن التمثيل للحضور القوي لأسئلة الحصر داخل مناظرات التراث العربي الإسلامي بما يلي:

- "أخبرني أليس موسى نبيئا؟"[2] من مناظرة بين شاب مسلم ويهودي قدم البصرة حول نبوءة موسى عليه السلام.
- "فالندم على الإساءة، إساءة أم إحسان؟"[3] من مناظرة جمعت المأمون وأحد المجوس.
- "أتقولون إن القرآن شيء أم غير شيء؟"[4] من مناظرة بين بشر المريسي وعبد العزيز المكي بين يدي المأمون.
- "أخبرني عن الذي يخلق الخير أيقدر على خلق مقدور الآخر؟"[5] من مناظرة بين أبي العباس السفاح أول خلفاء بني العباس برجل على مذهب المجوس.
- "أبالله تقدر أم مع الله أم دون الله؟"[6] من مناظرة بين الإمام علي وأحد

(1) إسحاق بن وهب: البرهان في وجوه البيان، مذكور، ص 94.
(2) السكوني: عيون المناظرات، مذكور، ص 220.
(3) نفسه، ص 212.
(4) نفسه، ص 208.
(5) نفسه، ص 206.
(6) نفسه، ص 176.

القدريين.

- "وهبك عرفت الراجح من الناقص من طريق الوزن، فمن لك بمعرفة الموزون أيما هو حديد أو ذهب أو شبه أو رصاص؟"[1].

أ - السؤال المحصور:

إن السؤال المحصور الذي عكسته هذه النماذج يماثل ما سماه ميشال ماير بسؤال التحديد Question de la qualification.[2] واستعماله داخل المناظرة بهذه الوفرة، يعود إلى أنه أنسب من السؤال المفوض، لتقييد البحث وتحديد الموضوع في المناظرة. إذ هذه الأخيرة ليست خوضا سائبا وعاما، بل إن إثارتها لا يجب أن تفيض عن المسألة موضوعها. ثم إن استحضار سؤال التحديد (المحصور) يؤشر على أن المناظرة، بما هي محاورة، لا يقبل عليها المتناظران خاليي الذهن، بل تجمعهما معرفة مشتركة، أو هما بصدد البحث عن معنى مشترك[3].

ب - سؤال التبرير:

إن الخاصية الأخرى المميزة لسؤال المناظرة، هو ارتباطه بالتبرير Question de Justification،[4] ويمكن التدليل على الحضور الواسع لهذا السؤال بالأمثلة التالية:

- "فقال عمرو: أيقدر [الله] علي شيئا ثم يعذبني عليه؟، قال: نعم، قال: ولم؟ قال: لأنه لا يظلمك"[5] من مناظرة أبي موسى الأشعري لعمرو بن العاص.
- وفي مناظرة أحد العلماء للروم "[...] فقال لهم: لم تعبدون عيسى؟"[6].
- وفي مناظرة أبي الحسن الأشعري للجبائي: "[...] فقال أي الجبائي: فلم امتنعت أن تسمي الباري تعالى عاقلا؟"[7].

(1) أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، مذكور، ص 109-110.
(2) Michel Meyer: "les fondements de l'argumentation", op. cit, p. 27.
(3) Michel Meyer: "Introduction à Aristote, Rhétorique", op. cit, p. 43.
(4) Michel Meyer: "les fondements de l'argumentation", op. cit, p. 27.
(5) السكوني: عيون المناظرات، مذكور، ص 189.
(6) نفسه، ص 218.
(7) نفسه، ص 228.

- وفي مناظرة لعلي بن أبي طالب مع الخوارج "فقالوا: أخبرنا عن الأمر لم جعلته بيننا وبينهم؟"[1].

إن اعتماد أسئلة التبرير في المناظرة مرده إلى طبيعتها الحجاجية، فبهذا السؤال تتم المطالبة بالحجة، وبناء الموقف وتعليله. إنه سؤال لا يستدعي الحكم فقط، بل يستدعي دعائمه ويستوضح الأسس التي قادت إليه. وبذلك فسؤال التبرير اختبار وقياس للحدود الإقناعية للموقف المتبنى. وحسب ميشال ماير، فإن سؤال التبرير يسائل الموقف وقد يسائل صاحبه[2]، لأنه يبحث في شرعية الأقوال وشرعية قائليها[3].

فضلا عن ذلك، فإن سؤال التبرير علامة خطابية على أن القضايا التي يتداولها المتناظران معرضة باستمرار للمراجعة والشك، حتى يستقيم بناؤها الحجاجي. ومن ثم، فالقضايا لا تكتسب مصداقيتها، ولا تصبح متقاسمة بين المتناظرين، أو ملزمة لأحدهما حتى تجيب عن مطالب التبرير التي يعلنها الآخر إزاءها.

ج - السؤال المصحوب بأفعال الرأي:

ومن المميزات الأخرى للاستفهامات في المناظرة، ورودها مرفقة بأفعال الرأي مثل:

- (تقول)، في قول أبي سعيد متوجها إلى متى: "فما تقول في معان متحولة بالنقل من لغة يونان إلى لغة أخرى سريانية، ثم من هذه إلى أخرى عربية؟"[4].
- (وصلت بجواب قاطع)، في قول أبي سعيد متوجها إلى متى: "فهل وصلته بجواب قاطع وبيان ناصع؟"[5].
- (حدثني)، في قول أبي سعيد كذلك: "وحدثني عن قائل قال لك: حالي في معرفة الحقائق والتصفح لها والبحث عنها حال قوم كانوا قبل وضع

(1) نفسه، ص 170.

(2) Michel Meyer: "les fondements de l'argumentation", op. cit, p. 29.

(3) Ibid.

(4) أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، مذكور، ص 111.

(5) نفسه، ص 114.

المنطق..."[1].

- (أخبرني)، في قول الشاب المسلم لليهودي "أخبرني أليس موسى نبيئا؟"[2]. وفي قول إياس بن معاوية لأحد القدريين "أخبرني عن الظلم؟"[3].
- (تزعمون)، "ألستم تزعمون أن الروح إذا خرجت من الجسد يصعد بها إلى عليين إن كانت سعيدة، أو ينزل بها إلى سجين إن كانت شقية؟"[4].

إن تلازم السؤال مع فعل الرأي، يكشف على أنه استفهام "موقفي" يتعلق بإثبات موقف وإعلان ادعاء بخصوص القضية أو القضايا المطروحة للتداول. يصبح السؤال تمييزا للاعتقادات وبحثا فيما تقوم عليه. ومن ثم يكتسي السؤال قيمته الإقناعية، فاستعماله يجسد مطالبة بتحديد موقع وموقف معينين إزاء موضوع الحوار.

2- مقصديات السؤال

لا يرتبط الاستفهام في المناظرة، إلا فيما ندر، بدلالته الحقيقية، بل يؤدي أغراضا أخرى تعكس الطاقة الحجاجية التي ينطوي عليها. ويمكن عموما اختزال أغراض الاستفهام داخل المناظرة في:

أ - سؤال الاستنكار

ب -سؤال التقرير

ج - سؤال التوريط

د - السؤال الجوابي

أ - الاستنكار:

يشتغل سؤال الاستنكار بشكل مهيمن داخل المناظرة، ويوافق أكثر اللحظات التي يحتدم فيها الحوار بين المتناظرين. ويمكن التدليل على حضوره في المناظرات من خلال الأمثلة التالية:

(1) نفسه، ص 116.
(2) السكوني: عيون المناظرات، مذكور، ص 220.
(3) نفسه، ص 217.
(4) نفسه، ص 218.

- "كيف تلزمني أمرا لا تعتقده ولا تقول به؟"[1]، من مناظرة جمعت بعض علماء المسلمين وفيهم الجبائي وأبو الحسن الأشعري والصالحي... بنصراني متفلسف.
- "كيف يرى الهدهد باطن الأرض وهو لا يرى الفخ حين يقع فيه؟"[2]، من مناظرة بين عبد الله بن عباس ونافع الخارجي.
- "فمن أين يلزم الترك والهند والفرس والعرب أن ينظروا فيه، ويتخذوه قاضيا وحكما لهم وعليهم..."[3]، "فكيف صرت تدعونا إلى لغة لا تفي بها؟"[4].
- "فلم تزري على العربية وأنت تشرح كتب أرسطو طاليس بها، مع جهلك بحقيقتها؟"[5].

بتأمل هذه الأمثلة، يتضح أن سؤال الاستنكار يتوسله المناظر لـ"تهييج الشك"[6] حول المواقف التي يتبناها خصمه، إذ يضعها موضع استبعاد أو استحالة. كما يتوخى من خلال هذه الصيغة إرباك الخصم و"إزعاجه"[7]. فالسؤال هنا ليس مساعدا يمكن الخصم من بسط وإشاعة طروحاته، بل هو وسيلة لدحره إلى مواقع دفاعية يحرم فيها المبادرة، وينشغل فقط برد النفي.

ولا تقف الأبعاد الحجاجية لسؤال الاستنكار عند هذه الحدود، بل ترتبط كذلك بالتشهير بأخطاء الخصم أو النفخ فيها، حتى يتسرب الارتياب لصاحبها، وحتى يتسع حجم فداحتها أمام الحضور. ففي غمرة المواجهة، كثيرا ما يتيح السؤال "تمرير خطاب سلبي عن الآخر"[8].

ب – التقرير:

(1) السكوني: عيون المناظرات، مذكور، ص 233.
(2) نفسه، ص 186.
(3) أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، مذكور، ص 111.
(4) نفسه.
(5) نفسه، ص 110.
(6) Olivier Abel: "la problématisation du monde de la mimésie de Paul Ricœur", Dans: Argumentation et questionnement..., op. cit, p. 97.
(7) Pierre Oléron: "Organisation et Articulation des échanges de paroles", op. cit, p. 75.
(8) Pierre Oléron: "Organisation et Articulation des échanges de paroles", op. cit, p. 75.

انتهت متابعة أسئلة الافتتاح التي تعتمدها المناظرة، إلى أن هذه الأسئلة لا تخلص للاستفهام، ما دامت دلالتها تقريرية. وهذا المقصد البلاغي لا ينحصر فقط في الحيز الافتتاحي، بل يؤطر استعمالات الاستفهام في طوري المناظرة الحاسمين (المواجهة والمدافعة).

ويمكن التدليل على استحضار المناظرة للاستفهامات التقريرية بالأمثلة التالية:

- يقول أبو سعيد مخاطبا متى بن يونس: "كأنك تقول: لا حجة إلا عقول يونان؟"[1].
- "إذا كانت الأغراض المعقولة والمعاني المدركة لا يوصل إليها إلا باللغة... أفليس قد لزمت الحاجة إلى معرفة اللغة؟"[2].

"فقال له (عمرو بن عبيد) واصل: "أليس قد وجدت أن الله تعالى يقول: ﴿... وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾" [المائدة، الآية 45].

- قال نصراني متفلسف لبعض المسلمين: "ألستم تزعمون أن الروح إذا خرجت من الجسد يصعد بها إلى عليين إن كانت سعيدة، أو ينزل بها إلى سجين إن كانت شقية؟"[3].

وفق هذه الأمثلة، يتضح أن استفهام التقرير وإن تظاهر بالاستفسار، فإنه لا يطلب الخبر بل يبحث في إقراره على المخاطب/ الخصم ليضعه أمام تبعاته. وبواسطة هذا الاستفهام أيضا يسحب الخصم للاعتراف بآرائه على رؤوس الأشهاد، والآراء إذ أصبحت مكشوفة ومثبتة التبني يسهل على المناظر إبراز تهافتها، وكشف تناقضها. وعليه فاستفهام التقرير استنتاج وليس استفسارا، لذلك يقول الدكتور حسين الصديق متحدثا عن الأسئلة التقريرية في المناظرة "هذا النوع لا يهدف إلى الاستفسار عن مسألة أو الاستيضاح عن جانب من الجوانب المطروحة، وإنما يسعى إلى تقرير استنتاج قام السائل بعرضه على الجمهور تمهيدا لنقده"[4].

(1) أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، مذكور، ص 112.
(2) نفسه، ص 111.
(3) السكوني: عيون المناظرات، مذكور، ص 218.
(4) حسين الصديق: المناظرة في الأدب العربي الإسلامي، مذكور، ص 259.

ج - التوريط:

إذا كانت غاية المناظرة هي الإلزام أو الإفحام، فإن ذلك لا يتم إلا بـ"قطع" الخصم، لتغدو الاستراتيجية الحجاجية عملا يتوخى إرباك الآخر. ولأجل ذلك يصبح السؤال "ضربة ملعوبة كما في الشطرنج"[1]، ينصب طعما Appât للخصم، فيجره إلى خلاف اعتقاده أو التنكر لرأيه، والانسجام مع موقف مناظره. ويمكن التدليل على استعمال المناظرة لهذا النوع من الاستفهام بالمناظرتين التاليتين، وقد تم اختيارهما لقصرهما ولوفائهما بالمطلوب التمثيلي:

1. "كان أبو حنيفة سيفا على الدهرية، وكانوا ينتهزون الفرصة في قتله. فبينما هو يوما في موضع وحده هجموا عليه بسيوفهم وهموا بقتله، فقال [لهم]:... أجيبوا عن المسألة وافعلوا ما شئتم قالوا: هات. قال: ما تقولون لمن قال لكم: رأيت سفينة مملوءة من الأثقال احتوشتها في لجة البحر أمواج ورياح مختلفة، وهي تجري مستوية ليس لها [رائس ولا] مدبر هل يجوز ذلك؟ قالوا: هذا شيء لا يعقله عاقل. قال أبو حنيفة: يا سبحان الله إذا لم يجز هذا، فكيف قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها وسعة أطرافها وتباين أكنافها من غير صانع و(لا) حافظ!. فبكوا واعترفوا بالحق"[2].
2. "ذكر أن أحد الخوارج استغلب على الكوفة فدخلها، فأحضر أبا حنيفة وأمر بقتله فقال له: ولم؟، فقال: لأنك أجزت التحكيم. قال له: أناظرك عليه فإن غلبتني قتلتني. قال نعم. قال فمن يحضر؟ يعني أقوالنا. قال: أحضر من يشهد على قولينا. فقال له: قد حكمت. فرجع الخارجي عن [قوله] وقتله لأنه قطعه بحجته"[3].

إن استفهامات التوريط التي تشتغل بوصفها آلية اقناعية في العديد من المناظرات، تتوخى الزج بالخصم في "حالة حرجة مراهنة على ألا يتخلص منها، أو [على الأقل] يخرج منها بشكل سيء، وبالتالي تسجيل نقطة ضده"[4]. إن هذه

(1) Pierre Oléron: Organisation et Articulation des échanges de paroles, op. cit, p. 65.
(2) السكوني: عيون المناظرات، ص 214.
(3) نفسه، ص 214-215.
(4) Pierre Oléron: Organisation et Articulation des échanges de paroles, op. cit, p. 65.

الاستفهامات مصائد، تجرف الخصم إلى سياق مناهض لاعتقاده، بحيث يتحول إلى محاجج ضد أفكاره دون أن يشعر. لذلك اعتبر حسين الصديق بأن السائل يرمي عبر هذا النوع من الاستفهام "ظاهريا إلى الاستعلام أو إلى توظيف ما هو غامض لديه، ولكنه في الحقيقة يسعى إلى تفتيت منهج التفكير والدفاع عند الخصم عن طريق التعاقب، والخصم في هذه الحالة، دون أن يريد، يشارك في بناء هذا المنهج الاحتجاجي عندما يجيب على الأسئلة"[1].

د - السؤال الجوابي:

إن من مظاهر التشغيل الحجاجي للسؤال في المناظرة توظيفه جوابا عن سؤال سابق. وهكذا، فإذا كان السؤال هجوما يتوخى انتهاك مجال الآخر، فإن السؤال الجوابي أو الارتجاعي كما يتجلى في بعض المناظرات، يمتص الهجوم ويغير الاتجاه الحجاجي. ولذلك فهو سؤال مضاد. ويمكن التمثيل لهذا النوع من الاستفهام من خلال هذه المقاطع التي تم انتقاؤها من بعض المناظرات:

- "ورد عن حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه أنه لما دخل [على] المقوقس النصراني ملك الإسكندرية رسولا من رسول الله ﷺ، فسأله المقوقس عن الحرب بين النبي ﷺ وبين قومه، فأخبره، أنها بينهم سجال. فقال المقوقس يخاطب ابن أبي بلتعة: أنبي الله يغلب؟ قال له حاطب: أولد الله يصلب؟ فكان هذا الجواب قطعا للنصراني"[2].
- "قال غيلان القدري لربيعة بن عبد الرحمان: أترى الله يريد أن يعصى؟ قال له ربيعة: أترى الله يعصى (قهرا)؟ فكأنما ألقمه حجرا"[3].
- "ذكر أن نصرانيا ورد قرطبة في أيام علمائنا [بها] وطلب المناظرة فاتفق أن اجتمع به ابن الطلاع، فقال له النصراني: ما تقول في عيسى؟ فقال له ابن الطلاع لعلك تريد (المبشر بمحمد؟) فانقطع النصراني، لأنه رأى إن أنكر هذا الوصف، كذب إنجيله، وكفر بعيسى على الحقيقة"[4].

(1) حسين الصديق: المناظرة في الأدب العربي الإسلامي، مذكور، ص 255.
(2) السكوني: عيون المناظرات، مذكور، ص 185.
(3) نفسه، ص 205.
(4) السكوني: عيون المناظرات، مذكور، ص 298.

واضح من مآل هذه المناظرات، أن الإقناع تم استنادا إلى السؤال، وليس إلى جواب. فمع السؤال الارتجاعي، تنتفي شرعية السؤال الأول، أو على الأقل يتساوى وضع المتناظرين. فلا أحد منهما فوق السؤال.

إن المأزق الذي يتوخى أحد المتناظرين زج الآخر فيه، ينقلب إلى مأزق له، يصبح الطرفان مسؤولين ومطالبين بالتبرير. ليس المشكل لدى الطرف الآخر المطالب بالجواب، بل إن المطالبة تعم المتناظرين معا.

إن السؤال الجوابي يثبت بأن السؤال الأول إما متسرع، أو غير محسوب، أو إنه قد يجلب نقيض ما يتوخاه منه صاحبه.

وغير خاف أن الفعالية الإقناعية للسؤال الجوابي، لا تتأتى إلا متى توفر لأحد المتناظرين الحضور المتيقظ وطاوعته سرعة البديهة.